# الباب الأول

# في العصر الجاهلي

## الفصل الأول

### الأمة العربية ـ موطنها ـ جنسها ـ لغتها ـ منزلة اللغة العربية بين اللغات السامية ـ سيادة لغة قريش وأسباب ذلك

# الباب الأول : العصر الجاهلي

## الفصل الأول ( الأمة العربية – موطنها – جنسها – لغتها )

– الأدب العربـــي يعتبر أقدم الآداب العالمية ، وإن لم يصلنا منه إلا أدب المائـــة والخمسين عاماً قبيل بعثة النبي " صلي الله عليه وسلم " وتطلق علي هذه الفترة تسمية " العصر الجاهلي "

ولا تحـــسبن أن هـــذه التـــسمية مشتقة من " الجهل " بل من الجهالة والطيش ، إذ قد نبع العرب في علوم ومعارف متنوعة تنفي عـــنهم الجهـــل ، غايـــة الأمر أنهم قوم سريعو الغضب يميلون إلي العراك والنزال ، تثور الفتن بينهم فتؤدي إلي حروب قد تدوم أعواماً ولقـــد عبـــروا عما يجيش بصدورهم في قصائد بالغة الجودة وكان يضرب بأدبهم الأمثال .

### جزيرة العرب [1]

تشغل جزيرة العرب الجزء الجنوبي الغربي من قارة أسيا ، تبلغ مساحتها ربع أوربـــا تقريبا ، وثلاثة أمثال القطر المصري أي ما يوازي ثلاثة ملايين كيلو متـــر مربع ، سماها الأقدمون " جزيرة " تجاوزاً مع أن الماء يحيط بها من ثـــلاث جهـــات ، ولا تسمي الأرض جزيرة إلا إذا أحاط بها الماء من أربع جهـــات . فالـــصحيح فـــيها " شبه جزيرة " إلا أن الأقدمين تساهلوا فسموها جزيرة .

---

[1] يراجع في ذلك تاريخ الأدب العربي " العصر الجاهلي " د/ شوقي ضيف ط دار المعارف

يـتألف غربـي هذا الإقليم من جزأين شهيرين : الحجاز شمالاً ، واليمن جنوباً .

– أمـا الحجـاز فقطـر فقير قلت مياهه ، وأجدبت أرضه ، واشتدت حرارته يعتمد أهله علي الأودية القليلة ، والآبار الشحيحة ، لم يستطيعوا أن ينتفعوا كثيراً بالماء الذي ينزل من السماء ، لأنهم لم يـبلغوا من الفنون مبلغاً يمكنهم من اختزانه واستخدامه عند الحاجة إليه ، وأشهر مدنه : مكة ، والمدينة ، والطائف .

– وأمـا اليمن فقد اشتهر قديما بالغني والخصب والحضارة ، كثرت أمطاره وسيوله وعرف أهله بما أوتوا من فن أن ينتفعوا بها ، فأنـشأوا السدود يسيطرون بها علي الماء جمعاً وتصريفاً ، وأشهر مدنه صنعاء ، ونجران ، وعدن .

– وهذان القطران أعني الحجاز واليمن ؛ أبعد البلاد أثراً في حياة العرب وفي تاريخهم السياسي والاقتصادي والأدبي .

– وإذا وقع نظرك علي خريطة تصور جزيرة العرب فأوضح ما تري فيها وأبعده ؛ ما فيها من صحاري في داخلها ، وهي متنوعة فـي صـبغتها ، فهـي سـهلة لينة حيناً ، وهي صلبة انتثرت فيها الحـصباء حيناً آخر ، ومفروشة بحجارة سوداء تسمي الحرار حيناً ثالثاً وهذه الصحاري في جملتها قفر ، تسطع الشمس عليها في الحر فـتلفح أرضها وأهلها ، ويعتمد أهلها وساكنوها علي ما تنبته بعض

الـــبقاع عقب المطر فترعاه إبلهم وشياههم وهم يأكلون من لحومها ، ويشربون من ألبانها ، ويلبسون من أصوافها وأوبارها .

**" نسب سكانها "**

اعـــتاد النـــسابون أن يقسموا الشعوب إلي أجناس ويسموا كل جـــنس باســـم خاص يجمعها ، واعتادوا أن يسموا الجنس الذي منه العرب " الجنس السامي " نسبة إلي " سام بن نوح عليه السلام " .

– والـــساميون كلمـــة تطلـــق علي مجموعة من الشعوب في الـــشرق الأوسط دلت القرابة بين لغاتها علي أنها كانت في الأصل تـــتكلم بلهجـــات مـــتقاربة تطـــورت إلي لغات سميت جميعاً باسم ( الـــسامية) أخذا من اسم سام بن نوح الذي ورد ذكره في التوراة ، وهـــي تـــسمية اصطلاحية ، فليس هناك أمة تسمي الأمة السامية ، وإنما هناك صلات لغوية بين طائفة من اللغات تدل علي أنها ترجع إلي أصل لغوي واحد .

– وتـــساءل العلماء عن المهد الأصلي لأسلاف الناطقين بهذه اللغـــات السامية كالآكدية والأوجريتية والكنعانية والآرامية والعربية الفصحي ، وتعددت إجاباتهم في هذا الصدد .

– فـــنمهم مـــن قال إن الساميين استوطنوا بلاد الحبشة وأنهم نـــشأوا مع إخوانهم الحاميين ثم هاجروا عن طريق باب المندب أو شبه جزيرة سيناء .

- ويري آخرون أنهم نشأوا في أواسط آسيا أو في أرمينية .
- ويري بعض المؤرخين أنهم نشأوا في شمالي سوريا .
- كما يري بعضهم أنهم نشأوا فيما بين النهرين .
- ويـرجح المؤرخـون [١] أن موطنهم الأساسي هو شبه الجزيرة العـربية ولمـا كثروا أو ضاقت بهم رقعة الأرض تشعبوا وتفرقوا فنـزحت جماعات منهم علي فترات إلي الشمال والشرق في سوريا والعراق واستقروا هناك .
- ومن قديم وهؤلاء العرب ينقسمون إلي عرب الشمال " الحجازيين" وعـرب الجـنوب " اليمانيـين " ويذكر النسابون أن عرب الشمال يرجعون في نسبهم إلي إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام .

وعرب الجنوب من نسل قحطان ، ويسمون اليمانيين أو القحطانيين ، وبين هذين النوعين من العرب فروق ترجع في جملتها إلي أن عرب الحجـاز تغلـب عليهم عيشة البداوة ، وعرب اليمن يعشون عيشة حضارة .

- ولسنا نقصد أن عرب الشمال كانوا يسكنون الحجاز فحسب وعرب الجنوب كانوا يسكنون اليمن فحسب ولا يتعدونها ، بل نعني أن كـلاً من الحجازيين واليمانيين عنصر يختلف في نسبه ودمه عن العنـصر الآخـر ، أو علـي الأقـل في زعمهم ، ولكن كانت بين

---

[١] انظر تاريخ مصر والعالم القديم / جمال مختار مطبعة عاطف سنة ١٩٧٦ .

العنـــصرين صـــلات ، ورحل قوم من كل فريق إلي موطن الآخر لأسباب يطول ذكرها ، فكان في الحجاز عرب من اليمن ، وكان في اليمن عرب من الحجاز .

وكل من اليمانيين والحجازيين ينقسمون إلي قبائل :

- فاليمانـــيون يتفرعون إلي فرعين كبيرين : شعب كهلان ، وشـــعب حمير ، فشعب كهلان أشهر قبائله طيئ ، وهمدان ، ولخم وكندة .

وشعب حمير أشهر قبائله قضاعة ، وتنوخ ، وكلب .

- والحجازيـــون كذلك ينقسمون إلي قسمين كبيرين : ربيعة ، ومضر فربيعة أشهر قبائله : بكر ، وتغلب

وشعب مضر أشهر قبائله : قيس ، وتميم ، وهذيل ، وكنانة وقريش وكل قبيلة من هذه القبائل تنقسم إلي بطون يطول عدها ، وكان بين هـــذه القبائل من الحروب والمنازعات والتهاجي ما ملئت بين كتب التاريخ .

# اللغة العربية

**منزلتها بين اللغات – اللهجات العربية – سيادة لغة قريش**

اللغة العربية : هـــي إحدي اللغات السامية ، وقد عرفت علي النحو الذي نعلمه حوالي آخر القرن الخامس للميلاد . ويذهب الباحثون في علـــم المقارنة بين اللغات إلي أن اللغة العربية من أقرب اللغات إلي اللغة الأصلية التي تفرعت منها اللغات السامية .

– وذلك نظراً لاحتباس العرب في بلادهم وقلة النازحين منها والوافدين إليها ، وضعف العلاقة بين أهلها وغيرهم من الأمم .

– وهي من أغني اللغات كلماً وأدقها تصويراً وأوسعها مذهباً ، حيث وسعت جميع أغراض البشر ولم تضق ذرعاً بجميع العلوم والفنون ، بل تقبلت كل ثمرات القرائح ، وأكبر دليل علي عظمتها نزول كلام الله بها " القرآن الكريم " .

– نشأت اللغة العربية في أقدم موطن للأمم السامية ( الحجاز ونجـــد وما إليها ) وعلي الرغم من ذلك فإن الآثار التي وصلت إلينا منها تعد من أحدث الآثار السامية فالذي وصل إلينا من آثار الآكادية أو البابلية – الآشورية يرجع تاريخه إلي القرن العشرين قبل الميلاد – والذي وصل إلينا من آثار العبرية يرجع تاريخه إلي القرن الثاني عشر قبل الميلاد ، والذي وصل إلينا من آثار الفينيقية يرجع تاريخه

إلي القرن العاشر قبل الميلاد ، وأقدم ما وصل إلينا من آثار العربية البائدة لا يتجاوز القرن الأول قبل الميلاد ، وأقدم ما وصل إلينا من أثـار العـربية الباقـية لا يكاد يتجاوز القرن الخامس بعد الميلاد ، فالـزمن بعـيد وعمـيق ، ولهذا فإننا لا نعلم شيئا عن طفولة اللغة العربية ، وما مرت به من أطوارها في عصورها الأولي .

- وفـي ضوء ما وصل إلينا من آثارها يمكن القول بأنها تنقسم إلي قسمين :-

١) العربية البائدة ٢) العربية الباقية

**العربية البائدة :**

وتـسمي عربية النقوش وتطلق علي لهجات كانت تتكلم بها عشائر عـربية تقـيم فـي شمال الحجاز علي مقربة من حدود الآراميين ، ولتطرف هذه اللهجات في الشمال ، وشدة احتكاكها باللغات الآرامية وبعـدها عن المراكز العربية الأصيلة في نجد والحجاز فقدت كثيراً من مقوماتها وصبغت بالصبغة الآرامية وقد بادت هذه اللهجات قبل الإسـلام ولم يصل إلينا منها إلا بعض نقوش عثر عليها في مساحة واسعة في " دمشق " .

**ومن هذه النقوش**

١) النقوش اللحيانية ٢) النقوش الثمودية

٣) النقوش الصفوية ٤) نقش النمارة

٥) نقش زبد ٦) نقش حوران

(٢) العربية الباقية

وهي التي تنصرف إليها كلمة العربية عند إطلاقها ، والتي لا تزال تستخدم عندنا وعند الشعوب العربية الأخري .

وقد نشأت هذه اللغة ببلاد نجد والحجاز ثم انتشرت في كثير من المناطق التي كانت تشغلها من قبل لغات سامية وحامية وانشعبت منها اللهجات التي يتكلم بها الآن في البلاد العربية .

وأقدم ما وصل إلينا من آثارها هو ما يعرف بالأدب الجاهلي . ويرجع تاريخ أقدمها إلي القرن الخامس بعد الميلاد علي أبعد تقدير ، وهي تمثل هذه اللغة في عنفوان اكتمالها وعظمتها بعد أن اجتازت مراحل كثيرة من التطور والارتقاء ، وبعد أن تغلبت لهجة من لهجاتها وهي لهجة قريش علي أخواتها بعد صراع طويل معها وصار العرب يؤمونها في شعرهم وخطابتهم ونثرهم الأدبي .

العربية الفصحى وسيادة لغة قريش

طفولة اللغة العربية – كما مر – ضاربة في مجاهل التاريخ بحيث لم يصلنا من أخبارها شئ والذي وصلنا منها هو نتاج مرحلة متقدمة من النضج والاستواء والسعة والازدهار ، ومعلوم أن قبائل العرب ومنازلهم قد اتسعت وانقسمت تبعاً للبيئة الجغرافية لشبهة جزيرة العرب .

ومن المقرر في قوانين اللغات أنه متى انتشرت اللغة في مساحة واسعة من الأرض وتكلم بها طوائف مختلفة من الناس استحال عليها الاحتفاظ بوحدتها الأولى أمداً طويلا بل لا تلبث أن تتشعب إلى عدة لغات .

ولم تفلت اللغة العربية من هذا القانون العام فقد انقسمت منذ أقدم عصورها إلي لهجات كثيرة يختلف بعضها عن بعض في كثير من مظاهر الصوت والدلالة والقواعد والمفردات ، واختصت كل قبيلة وكل جماعة بلهجة من هذه اللهجات .

***وإليك بعض من ما شهر من اللهجات :***

١) عجعجة قضاعة : وهي قلب الياء المشددة جيماً مطلقا فيقولون علج في علي ، وعشج في عشي ومن ذلك قول شاعرهم :

خالي عويف وأبوعلج المطعمان اللحم بالعشج

٢) كشكشة تميم وأسد وربيعة : وهي أن يلحقوا بكاف المخاطبة شيئا في الوقف ، فيقولون : رأيتكش أي رايتك ، وعليكش أي عليك.

٣) فحفحة هذيل : وكانوا يقلبون الحاء عينا فيقولون : عتى في حتى ، وعين في حين .

٤) الطمطمانية : وهي لحمير وأهل اليمن وبعض طئ وهي إبدال لام التعريف ميماً .

فـيقولون امـسهم فـي السهم وامبر في البر وامصيام في الصيام .
ونقول نحن في عاميتنا امبارح بدلاً من البارحة .
٥) وينـسب إلي بعض الحميريين أنهم كانوا يجعلون السين تاء في بعض الكلمات فيقولون النات بدل الناس
ويستشهد اللغويون علي ذلك بقول علباء بن أرقم

يا قبح الله بني السعلات عمرو بن يربوع شرار النات
ليسوا أعفاء ولا أكيات [١]

أي شرار الناس – ولا أكياس ..... الخ
وهـناك لهجات كثيرة نسبت إلي بعض القبائل ، ولهجات أخري لم تنـسب إلـي قبائلها ، يقول الدكتور شوقي ضيف : ( ولا نريد أن نمضي في تصوير الاختلافات بين لهجات القبائل في الجاهلية أكثر من ذلك ، لسبب طبيعي وهو أننا لا نستطيع أن نستوعبها في صحف معدودة إنما أردنا أن نكشف عن بعض جوانبها ليتضح أنه كانت في الجاهلـية لهجات كثيرة سجل منها اللغويون أطرافا ، ومن غير شك لم يسجلوها جميعا لأنها لم تكن تعنيهم في حد ذاتها ، إنما كان يعنيهم التنبـيه علي ما يخالف الفصحي التي نظم بها الشعر الجاهلي ونزل بهـا القرآن الكريم ، ومن أجل ذلك لم ينصوا في أكثر الأحوال علي القبيلة التي كانت تنطق باللهجة الشاذة [٢].

---

[١] انظر في ذلك كتاب المزهر للسيوطي في مواضع متفرقة ، وكتاب الصاحبي في فقه اللغة لأحمد بن فارس

[٢] العصر الجاهلي صـ ١٣٠ ط السادسة عشرة – دار المعارف

## سيادة لهجة قريش

أتـــيح للهجات العرب المتعددة فرص كثيرة للاحتكاك بفضل الـــتجارة ، وتبادل المنافع ومجاورة القبائل بعضها لبعض وتنقلها في طلب الكلأ وتجمعها في الحج والأسواق والحروب الأهلية وغير ذلك فاشـــتبكت مـــن جـــراء ذلك اللهجات العربية بعضها مع بعض في صراع لغوي كتب فيه النصر للهجة قريش .

يقـــول الدكـــتور ضيف : ( يدل ما بين أيدينا من شعر جاهلي دلالة قاطعـــة علـــي أن القبائل العربية الشمالية اصطلحت فيما بينها علي لهجـــة أدبـــية فصحي ، كان الشعراء علي اختلاف قبائلهم وتباعدها وتقاربها ينظمون فيها شعرهم ، فالشاعر حين ينظم شعره يرتفع عن لهجـــة قبيلته المحلية إلي هذه اللهجة الأدبية العامة ، ومن ثم اختفت جملة الخصائص التي تميزت بها كل قبيلة في لهجتها فلم تتضح في شعر شعرائهم إلا قليلا جداً ) [١]

يقول أبو نصر الفارابي : ( كانت قريش أجود العرب انتقاءً للأفصح من الألفاظ وأسهلها علي اللسان عند النطق وأحسنها مسموعاً وأبينها إبانة عما في النفس ) [٢]

---

[١] السابق صـــ ١٣١ .

[٢] المزهر للسيوطي جـــ ١ صـــ ٢١١ .

ويقــول أحمــد بــن فارس نقلاً عن إسماعيل بن عبيد الله : ( أجمع علماؤنــا بكــلام العرب والرواة لأشعارهم والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالهم أن قريشاً أفصح العرب ألسنة وأصفاهم لغة ، وذلك أن الله جــل ثــناؤه اختارهم من جميع العرب واصطفاهم واختار منهم نبي الرحمة محمداً " صلي الله عليه وسلم " فجعل قريشاً قطان [١] حرمه وجيــران بيــته الحــرام وولاته ، فكانت وفود العرب من حجاجها وغيــرهم يفــدون إلــي مكــة للحج ، ويتحاكمون إلي قريش في أمورهم ..... وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها إذا أتــتهم الوفــود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغــاتهم وأصــفي كلامهــم ، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلي نحائزهم وسلائقهم التي طبعوا عليها ، فصاروا بذلك أفصح العرب ، ألا تــري أنك لا تجد في كلامهم عنعنة تميم ولا عجرفية قيس ولا كشكشة أسد ) [٢]

## أسباب سيادة لهجة قريش

يقــول د/ ضــيف : ( ونحن إذا طلبنا سبباً لتفوق لغة قبيلة في نجد علي جميع اللغات واللهجات المجاورة لها أعوزنا ذلك ..... بينما

---

[١] قطان بالضم / أي سكان .

[٢] انظر الصاحبي في فقه اللغة صـــ ٢٣ . ط المؤيد . والعجرفية : التقعر وطلب الغريب الوحشي من الكلام .

إذا طلبـنا ذلك في قريش وجدنا أسباباً كثيرة تعين عليه ، فقد كانت مهـوي أفـئدة العرب في الجاهلية وكان بها عليهم نفوذ واسع بسب مركـزها الدينـي الروحـي والاقتصادي المادي ، إذ كانت حارسة الكعبة بيت عبادتهم ، وكانت قوافلها تجوب أنحاء الجزيرة العربية ، وكان العرب يجتمعون إليها في أعيادها الدينية وفي أسواقها القريبة والبعيدة .

- ومعنـي ذلـك أن هناك أسباباً دينية واقتصادية أعدت لهجة مكة لتسود اللهجات القبلية في الجاهلية ، وقد تداخلت فيها أسباب سياسية فأن القبائل العربية كانت تري تحت أعينها هجوم الدول المجاورة من الفـرس والـروم والحـبش علي أطرافها ، كما كانت تري هجوم الديانتـين المـسيحية واليهودية علي دينها الوثني ، فتجمعت قلوبها حـول مكة ، وهوت أفئدتها إليها وبذلك تهيأ للهجة القرشية أن يعلو سلطانها في الجاهلية اللهجات القبلية المختلفة ) .

يتـضح ممـا سـبق أن هناك عوامل كثيرة ساعدت علي تغلب هذه اللهجة نجملها فيما يلي

١) العامل الديني :-

فقـد كانـت قريش مجاورة لبيت الله الحرام يقيمون حوله ويقومون بـسدانته ، وكـان لهذا البيت قداسته عند معظم القبائل العربية في الجاهلـية ، يحجـون إلـيه ليؤدوا مناسكهم ، ويزوروا أصنامهم ،

ويقدموا لها القرابين ، ويشهدوا منافع لهم ، فكان لقريش بذلك السلطان الديني على بقية القبائل العربية .

٢) العامل الاقتصادي :-

كان سلطان اقتصادي خطير ، فقد كانت معظم التجارة في أيدي القرشيين الذين كانوا ينتقلون بتجارتهم في مختلف بقاع شبه الجزيرة العربية من الشام شمالاً إلى أقصى اليمن جنوبًا ، فكانت لهم رحلات تجارية منظمة في مختلف فصل السنة من أشهرها رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى الشام كما حدث بذلك القرآن الكريم إذ يقول : ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ ۝٤﴾ [1]

٣) العامل السياسي :-

فقد تحقق لقريش بفضل نفوذها الديني والاقتصادي ، وبفضل موقع بلادها ، وما كانت تمتاز به من حضارة ونعيم نفوذ سياسي قوي في سائر بلاد العرب في العصر الجاهلي ، وفي ذلك يقول أبو بكر الصديق – رضي الله عنه – في رده على الأنصار الذين رغبوا في الخلافة بعد وفاة الرسول – صلى الله عليه وسلم – " لا تدين العرب إلى لهذا الحي من قريش ، فلا تنفسوا على إخوانكم ما منحهم الله من فضله "

---

[1] سورة قريش / الآيات ١-٤.

وربما يفهم من قول أبي بكر – رضي الله عنه – أن ذلك كان بسبب الإسلام ، لأنه قال قوله هذا بعد وفاة النبي – صلي الله عليه وسم – ويـــرد هـــذا أن أبا طالب عم النبي عليه الصلاة والسلام – قال في خطبته عند زواج النبي من السيدة خديجة رضي الله عنها : " الحمد لله الـــذي جعلـــنا من ذرية إبراهيم ، وزرع إسماعيل وجعل لنا بلدا حراما وبيتا محجوجا ، وجعلنا الحكام علي الناس .....) [1]

٤) العامل اللغوي

كانـــت لهجـــة قـــريش أوسع اللهجات ثروة وأغزرها مادة ، وأرقها أسلوبا ، وأقربها إلي الكمال ، وأقدرها علي التعبير في مختلف فنون القول لذا قال الفراء : كانت العرب تحضر الموسم في كل عام وتحج البـــيت في الجاهلية ، وقريش يسمعون لغات العرب ، فما استحسنوه مـــن لغـــاتهم تكلموا به ، فصاروا أفصح العرب ، وخلت لغتهم من مستبشع اللغات ، ومستقبح الألفاظ .

– وقـــد مـــر بنا قبل ذلك قول ثعلب من أنها ارتقت عن عنعنة تميم وكشكشة ربيعة ..... الخ

وكذلك قول أبي نصر الفارابي من أن قريشاً كانت من أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ وأسهلها علي اللسان عند النطق ..... الخ

---

[1] الوسيط في الأدب العربي / أحمد الأسكندري – مصطفي العناني ط ٧ صـــ ٢٩ مطبعة المعارف .

- إذن جميع الظروف التي تقتضيها قوانين التغلب اللغوي كانت مهيأة لتغلب لهجة قريش علي اللهجات العربية الأخري ، فليست ظاهرة تغلبها فذة في التاريخ أو يرجع سببها إلي إرهاص أو إعجاز بل هي ظاهرة عامة في لغات البشر قديمها وحديثها .

- لهذه الأسباب مجتمعة أصبحت لغة قريش هي اللغة الأدبية التي يصوغون فيها أدعيتهم الدينية وأفكارهم وأحاسيسهم وكان الشعراء يتخذونها لغة شعرهم ، وكذلك كان الخطباء يرتجلون بها خطبهم متسامين بها علي لهجاتهم القبلية ، ومما يدعم ذلك ما قاله الرواة من أن العرب ( كانت تعرض أشعارها علي قريش ، فما قبلوه منها كان مقبولا ، وما ردوه منها كان مردوداً ..... )

# الفصل الثاني

## الأسواق العربية وأثرها في الحياة الأدبية

## الأسواق العربية وأثرها في الحياة الأدبية

كـــان العرب في الجاهلية يقيمون أسواقاً ، وهذه الأسواق كانت تقام فـــي أشـــهر السنة للتجارة والتسوق ينتقلون من بعضها إلي بعض ، ( فـــتدعوهم طبـــيعة الاجتماع إلي المقارضة بالقول والمفاوضة في الرأي والمبادهة بالشعر ، والمباهاة بالفصاحة ، والمفاخرة بالمحامد وشـــرف الأصـــل ، فكان للعرب من ذلك معونة علي توحيد اللسان والعـــادة والـــدين والخلق ، إذ كان الشاعر أو الخطيب إنما يتوخي الألفـــاظ العامة والأساليب الشائعة قصداً إلي إفهام سامعيه ، وطمعاً فـــي تكثيـــر مشايعيه ، والرواة من ورائه يطيرون شعره في القبائل وينشرونه في الأنحاء ، فتنتشر معه لهجته وطريقته وفكرته ) [1]

**وأشهر هذه الأسواق هي عكاظ ، ومجنة وذو المجاز .**

### أولاً : عكـــاظ

عكـــاظ اســـم قـــرية تقع بين نخلة والطائف ، بينها وبين مكة ثلاث مـــراحل اتخذت سوقا سنة ٥٤٠ للميلاد ثم بقيت في الإسلام إلي أن نهبها الخوارج سنة ١٢٩هـــ بعدما ضعف شأنها .

وكانـــت هذه القرية يقام فيها السوق في أول ذي القعدة من كل عام إلـــي العشرين منه وكان يجتمع بها كثير من سادة العرب للمتاجرة ومفـــاداة الأسري ، والتحكيم في الخصومات ، والمفاخرة والمنافرة

---

[1] تاريخ الأدب العربي / أحمد حسن الزيات صـــ ٥ ، ط نهضة مصر .

بالـــشعر والخطب في الحسب والنسب والكرم ، وغيرها مما يتفاخر بها في عظيم المصائب والأرزاء .

يقـــول الـــزيات عن الأسواق مبيناً أثرها في الحياة الأدبية وخاصة عكـــاظ : ( وأشهر هذه الأسواق عكاظ ومجنة وذو المجاز وأولاهن أشـــهر فضلاً وأقوي أثراً في تهذيب العربية ، كانت تقوم هلال ذي القعـــدة وتـــستمر إلي العشرين منه فتفد إليها زعماء العرب وأمراء القول للمتاجرة والمفاخرة ومفاداة الأسري ، وأداء الحج ، وكان كل شـــريف إنمـــا يحضر سوق ناحيته ، إلا عكاظ فإنهم كانوا يتوافدون إليها من كل فج ، لأنها متوجههم إلي الحج ، ولأنها تقام في الأشهر الحـــرم ، وذلك ولا ريب سر قوتها ، وسبب شهرتها وكان مرجعهم فـــي الفـــضل بيـــنهم إلي محكمين اتفقوا عليهم وخضعوا لهم فكانوا يحكمون لمن وضح بيانه وفصح لسانه ) [١]

وكان من أشهر المحكمين النابغة الذبياني ، ومن أشهر خطبائها قس ابن ساعدة الإيادي .

وثابـــت فـــي تاريخ الأدب أن النابغة الذبياني كانت تضرب له قبة حمراء من أدم في سوق عكاظ فتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها فكان من الوافدين عليه وهو يقضي بين الشعراء في عكاظ : حسان بن ثابت والخنساء والأعشي .

---

[١] السابق صـــ ١٦

فأنشده حسان :

**لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحي**

**وأسيافنا يقطرن من نجدة دما**

**ولدنا بني العنقاء وابني محـــرق**

**فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنما** [1]

وأنشدته الخنساء :

**قذي بعينك أم بالعيـــن عـــوار**

**أم أقفرت مذ خلت من أهلها الدار**

وأنشده الأعشي :

**ما بكاء الكبـير بالأطـــلال وسؤالي وما تـــرد سؤالـــي**

فحكـــم النابغة بينهم جميعا فقال للخنساء : لولا أن أبا بصير – يعني الأعشي – سبقك ، لقلت إنك أشعر من بالسوق .

– وقـــال لحسان : إنك لشاعر ، ولكنك أقللت جفانك وأسيافك – أي استعمل جمع القلة بدلاً من جمع الكثرة – وأضعفت فخرك ، وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك ، أي افتخر بالفرع دون الأصل وهم الأباء والأجداد .

فقام حسان وقال : والله لأنا أشعر منك ومن أبيك ، فقال له النابغة : يا ابن أخي أنت لا تحسن أن تقول :

---

[1] بني العنقاء وابني محرق / قبيلتان من الأزد

**فإنك كالليل الذي هو مدركي**

**وإن خلت أن المنتأي عنك واسع**

فخنس حسان لقوله .

وهـــذه الـــرواية تؤكد أن أسواق العرب كانت ميادين فسيحة لإنشاد الـــشعر والتنافس في الإجادة والإتقان وأن الشعراء كانوا آخر الأمر يـــنقادون لحكم أصحاب الرأي والبصيرة من النقاد فقد رجع حسان عن مبالغته عندما أنشده النابغة شعره .

- وفـــي أخـــبار الأعشي في " الأغاني " أيضا رواية تؤكد أنه كان يوافـــي كل عام سوق عكاظ ، وكان المحلق الكلابي مملقا " فقيراً " فقالت له امرأته : ما يمنعك من التعرض لهذا الشاعر .... فتعرض له ونحر له ناقته وسقاه ، وخرج الأعشي من عنده ، فلما وافي سوق عكاظ اجتمع الناس حوله وهو ينشدهم

**لعمري لقد لاحت عيون كثيـــرة**

**إلي ضوء نار باليفاع تحـــرق**

فمـــا أن انتهـــي من إنشاده حتي سلم عليه المحلق الكلابي ، فنادي الأعشي في المجلس منوهاً به ومعرفاً ، فما قام المحلق من مقعده إلا وقد زوج بناته جميعاً .[1]

---

[1] انظر الأغاني جـ ١١ صـ ٣٧٩٢ .

ومـــن اهـــتمام العـــرب بالـــشعر في سوق عكاظ أنهم كانوا يعلقون القـــصائد الـــسبع المجـــودة المحبرة افتخاراً بفصاحتها علي كل من يحضر الموسم من الشعراء القادمين من شتي القبائل ، وكانوا يفعلون ذلـــك إما لتحدي الشعراء أن يقولوا مثل هذه القصائد علي اعتبار أن هـــذه القـــصائد هي القمة عندهم في الفصاحة والجزالة ، وإما لحث الـــشعراء علـــي الإحـــسان فـــي قـــولهم وشعرهم مثلما أحسن أهل وأصحاب القصائد السبع .

– وهـــناك العديـــد من أسماء الشعراء اللامعين الذين كانوا يرتادون هذه السوق من أمثال النابغة الجعدي ، والنابغة الذبياني ، وحسان بن ثابت ، والأعشي ، والخنساء ، والأغلب العاجلي ، والمستوعر .

ثانيا : مجنـــة

ومجـــنة موضـــع أسفل مكة علي بعد أميال منها . وكانت العرب ينـــتقلون إليها من عكاظ بعد انتهائها ويظلون بها " مجنة " إلي نهاية ذي القعـــدة ، أي يظلون عشرين يوماً في عكاظ وعشراً في مجنة . ومجـــنة من الأسواق العربية العديدة التي عرفها العرب قديماً إلا أن الشهرة والفضل يظلان لعكاظ .

ثالثاً : ذو المجاز

- وهـو موضـع بـ " منـي " خلف جبل عرفات وكانت العرب يـرتادونها فيقيمون فيها ثمانية أيام من شهر ذي الحجة ، ثم يقفون بعرفة في اليوم التاسع .

- وهكذا كانت الأسواق ذات أثر اجتماعي أيضا ولكنه يتصل بمنزلة الشعر في نفوس العرب،إذ كانوا يقبلون علي استماعه وتلبية داعيه .

- وكان من أثر الأسواق أيضا تهذيب اللغة العربية ، إذ كانت قريش تأخذ من لهجات العرب ما خف علي اللسان وحسن في السمع حتي لطفـت لهجـتهم ، وجاد أسلوبهم واتسعت لغتهم لأن ينزل بها خير الكلام وهو القرآن الكريم .

أيضا كانت الأسواق حلبة فسيحة للشعراء يعرضون أشعارهم ، مما كان له عظيم الأثر في شحذ هممهم ، وخلق روح المنافسة بينهم .

# الفصل الثالث

## الأدب ، مفهومه ، عناصره

## العوامل المؤثرة فيه

## تقسيمه إلى إنشائي ووصفي

## ثم إلى نثر ونثير

## الأدب مفهومه ، وعناصره والعوامل المؤثرة فيه

إن عنايتنا بالأدب ترجع أولاً وقبل كل شئ إلي أهميته الإنسانية العميقة الباقية ، فالأدب سجل حي لما رآه الناس في الحياة وما خبروه منها ، وما فكروا فيه وأحسوا به إزاء مظاهرها التي لها عندنا جميعاً أهمية مباشرة ، ولذلك كان الملوك والأمراء والوزراء يتخذون لأبنائهم الصفوة المختارة من أهل العلم والمعرفة فينقطعون لهم في تهذيبهم وصقل عقولهم بأقوال السابقين ليكون لهم من هذا الرصيد ثروة ينفقون منها ، ومعين يستعينون به إذا ما أعوزتهم الحاجة إلي التعبير .

والأدب هو ذلك الفن الرفيع الذي يصدر جماله عن طبع الكاتب والشاعر في الكلمة يرسلها والقصيدة ينظمها فتقع علي مواطن الحسن من النفس فتثيرها حماسة ونجدة ، وتذيبها حنانا ورقة ، وتهزها أريحية وكرما .

### المدلول اللغوي لكلمة ( أدب )

لقد مرت هذه الكلمة بأطوار مختلفة حتي وصلت إلي ما يراد منها اليوم أما عن مدلولها اللغوي فقد جاء في لسان العرب لابن منظور [1] ( الأدب الذي يتأدب به الأديب من الناس ، سمي أدبا لأنه يأدب " يدعو " الناس إلي المحامد وينهاهم عن المقبح ، وأصل الأدب

---

[1] لسان العرب صـ ٤٣ ط دار المعارف

الدعاء ، ومنه قيل للصنيع يدعي إليه الناس مدعاة ، ومأدبة .....

**الأدب** : أدب النفس والدرس ، والأدب الظرف وحسن التناول ، وأدب بضم الدال فهو أديب من قوم أدباء ..... والأدب بسكون الدال مصدر قولك أدب القوم يأدبهم بالكسر أدباً إذا دعاهم إلي طعامه وفي الحديث (إن هذا القرآن مأدبة الله في أرضه فتعلموا من مأدبته) إلي غير ذلك من المعاني التي تدور حولها الكلمة .

وقلما نجد باحثاً في الأدب الجاهلي أو كاتبا فيه إلا عني بكلمة " الأدب " ومعانيها المختلفة في العصور العربية المختلفة .

- وإذا رجعنا إلي العصر الجاهلي ننقب عن الكلمة فيه لم نجدها تجري علي ألسنة الشعراء ، إنما نجد كلمة آدب بمعني : الداعي إلي الطعام ، فقد جاء في قول طرفة بن العبد :-

**نحن في المشتاة ندعو الجفلي  لا تري الآدب فينا ينتقر** [1]

ومن ذلك المأدبة بمعني الطعام الذي يدعي إليه الناس ، واشتقوا من هذا المعني أدب يأدب بمعني صنع مأدبة أودعا إليها .

إذن كلمة أدب في العصر الجاهلي معناها الدعوة إلي الطعام أو الدعوة عموماً والأدبة والمأدبة بالفتح ، والمأدبة بالضم : كل طعام صنع لدعوة أو عرس ، قال صخر الغي يصف عقاباً :

---

[1] المشتاة : الشتاء والدعوة الجفلي : العامة  والآدب : الداعي

ينتقر : يختار أناساً دون آخرين .

**كأن قلوب الطير في قعر عشها**

**نوي القسب ملقي عند بعض المآدب**[1]

كما وردت الكلمة " أدب " في معني الدعوة إلي الحق " كما في قول أبي ذؤيب الهذلي :

**وكيف قتالي معشراً يأدبونكم علي الحق إلا تأشبوه بباطل**

ولـيس وراء هذه الأبيات ، أبيات أخري تدل علي أن الكلمة انتقلت في العصر الجاهلي من هذا المعني الحسي إلي معني أخر .

أما في صدر الإسلام

فقد استعملت كلمة أدب في معني تهذيب النفس وترويضها لاكتساب المحاسـن والمحامد المعنوية ومن ذلك ما أثر عن النبي ( صلي الله عليه وسلم ) أنه قال : ( أدبني ربي فأحسن تأديبي )

ومـن دلالتها علي حسن الخلق ما قاله سهم بن حنظلة الغنوي وهو شاعر مخضرم إذ يقول :

**لا يمنع الناس مني ما أردت ولا أعطيهم ما أرادوا حسن ذا أدبا**

وربمـا استعملت الكلمة في العصر الجاهلي بهذا المعني الخلقي فها هو ذا الأعشي يفتخر بحسن خلقه وهو بصدد الحديث عن ظلم الكلبي الذي أسره فيقول :

**جروا علي أدب مني بلا نزق إلا إذا شمرت حزب بأغمار**

---

[1] القسب : تمر يابس صلب النوي

- **في العصر الأموي** : نري الكلمة قد توزعت في دلالتها بين استعمالين هما :-

١- تهذيب النفس وحملها علي اكتساب المحامد والمحاسن والأخلاق الكريمة ومن ذلك ما جاء في الحماسة من قول الشاعر : -

**أكنيه حين أناديه لأكرمه ولا ألقبه والسوأة اللقبا**

**كذاك أدبت حتي صارمن خلقي إني وجدت ملاك الشيمة الأدبا**

٢- استعمالها في التعليم ، فقد أصبحت الكلمة تطلق علي كل ألوان المعرفة من شعر ونثر وخطب وتاريخ وقصص ورواية وحديث وفقه .... الخ .

يقول الدكتور شوقي ضيف : ( ولا نمضي في عصر بني أمية حتي نجد الكلمة تدور في المعني الخلقي التهذيبي وتضيف إليه معني ثانيا جديداً وهو معني تعليمي فقد وجدت طائفة من المعلمين تسمي " بالمؤدبين " كانوا يعلمون أولاد الخلفاء ما تطمح إليه نفوس آبائهم فيهم من معرفة الثقافة العربية فكانوا يلقنونهم الشعر والخطب وأخبار العرب وأناسبهم وأيامهم في الجاهلية والإسلام ، وأتاح هذا الاستخدام الجديد لكلمة الأدب أن تصبح مقابلة لكلمة العلم الذي كان يطلق حينئذ علي الشريعة الإسلامية وما يتصل بها من دراسة الفقه والحديث النبوي وتفسير القرآن الكريم ) [١]

---

[١] تاريخ الأدب العربي " العصر الجاهلي " صـ ٨

- وعـــرف حينـــئذ أن المعلـــم مؤدب والمتعلم متأدب ، وما يتلقاه المـــتأدب من المؤدب أدب . وفي نهاية هذا العصر انفصلت العلوم العربية عن العلوم الشرعية وأصبح الأدب يطلق علي الشعر والنثر وما يتصل به من ألوان المعرفة ما عدا العلوم الشرعية ، وهكذا بدأ المفهـــوم يـــتجه نحو التحديد والانفصال من غيره مما لا يدخل فيه دخولاً مباشراً .

- أمـــا في العصر العباسي فقد أخذت الدائرة تضيق أكثر فقد خرج عـــن مفهـــوم الكلمـــة " الأدب " النحو والصرف وعلوم اللغة التي اقتـــضتها الضرورة حرصاً علي الشعر والنثر وما يتصل بهما من شـــرح ورواية وتفسير وأخبار ونقد وحكم وأمثال وبلاغة وما يلزم ذلـــك مـــن النحو والصرف بقدر ضئيل ، ومن الكتب التي ظهرت تحمل هذا الطابع آنذاك " طبقات الشعراء " لمحمد بن سلام الجمحي " والبـــيان والتبيـــين " للجـــاحظ ، و" الشعر والشعراء " لابن قتيبة " والكامل " للمبرد .

- وفـــي نهاية القرن الثالث الهجري أخذت معاني الكلمة الاتجاهات الآتية :

١- المعني الخاص : وهو الشعر والنثر وما يتصل بهما من الأخبار والأنساب والأيام والأحكام النقدية .

٢- المعنـــي العـــام الـــذي يشمل المعارف الإنسانية والآثار العلمية وأنواع الفنون التي تعمل علي اتساع الثقافة عند المرء .

٣- تلـــك العلوم الأدبية التي استقلت وصارت غير الأدب الخالص ، وأن كانت لازمة للأديب ليستكمل بها ثقافته ويستعين بها علي إنشاء الأدب وفهمه ونقده كالأنساب والأخبار واللغة والفلسفة التي نقلت عن الثقافات الأخري كاليونانية والفارسية والهندية .

٤- أدب الـــنفس : وهـــو كل أسلوب مستحسن في علم أو عمل من خلق فاضل وسيرة محمودة .

- وفـــي أواســـط هـــذا العصر وبعد أن اتسعت آفاق الشعر والنثر وتطورت أساليبهما نجد الأدب قد قطع شوطاً ملحوظاً من التخصص فأصبح له معني خاص يدل علي : النتاج الجيد من الشعر والنثر وما يتـــصل بـــذلك من الرواية والتراجم للأدباء والوقوف علي أخبارهم وحـــياتهم والمؤثـــرات المهمـــة فيها ، وتبعا لذلك وما جد من أمور نـــشطت حـــركة الـــنقد واتسعت حتي أثمرت مجموعة من الكتب : كالـــصناعتين لأبي هلال العسكري ، والموازنة للآمدي ، والوساطة للقاضي الجرجاني .

ولما كثرت المعارف الإنسانية من طب وفلك ورياضة وفنون وبيان وفـــصاحة ..... الـــخ . ولمـــا كـــان الإلمام بها مهما أطلق بعض الباحثين علي الأدب آنئذ أنه : الأخذ أو الإلمام من كل فن بطرف .

ولعل الحاجة هي التي دعت إلي ذلك .

فنظـــراً للفـــتح والاخـــتلاط وترجمة علوم الثقافات الوافدة وكان من أسباب التحضر والتقدم معرفة ذلك فاتسع مفهوم الأدب العام ليجاري ركـــب الحـــضارة ولعـــل الأقرب إلي الواقع أن الأدب شعره ونثره للتثقيف الواسع .

- وظل مدلول الكلمة بعد ذلك يضيق ويتحدد حتي أخذت الكلمة في أواخر القرن الخامس مدلولها الذي هو أقرب إلي مدلولها في عصرنا الحالي وهو : فن الكلام الجميل شعراً ونثراً والذي يصور به الأديب الطبـــيعة والحـــياة وما يعن له من أمور يصورها من خلال أخيلته وإحـــساسه بهـــا تـــصويرا يحقق في نفوس القراء والسامعين المتعة واللذة الفنيتين .

ويـــري المستشرق الإيطالي " كارلو نالينو " أن كلمة " أدب " مقلوبة عن " دأب " ويقول أن العرب جمعت دأبا علي آداب كما جمعوا بئراً علي آبار ورأيا علي آراء ثم عادوا فتوهموا أن آدابا جمع أدب ، ثم دارت في لسانهم كما دارت كلمة دأب بمعني السنة والسيرة .

وهـــذا رأي افتراضـــي وضعيف ومن أسباب ضعفه أنه لم يرد في المعـــاجم اللغـــوية أو في أي نص جمع كلمة الدأب علي آداب ولكن ورد في كتب اللغة جمع بئر علي آبار وأبآر . كما أن كلمة الدأب لم تـــرد بمعني الأدب لأن الدأب هو العادة والشأن والاستمرار بالحسن أو بالسوء بينما الأدب خلق كريم

## تاريخ الأدب:

هو علم يبحث عن أحوال اللغة وآدابها نثرها ونظمها في عصورها المختلفة وكذلك ما أنتجته قرائح أبنائها من بليغ القول نظماً ونثراً من حيث رفعتها وضعتها وما عرض لها من أسباب الصعود والهبوط .

- ويعني كذلك بتاريخ النابهين من أهل الكتابة واللسن وما لهم من أثر بين في الأدب والمؤثرات التي جعلتهم ينتحون الأدب بهذه الصفة من القوة أو الضعف وهو يقف علي الأسباب العامة لارتقاء الأدب والعكس ، كما يقف بك علي أساليب اللغة وفنونها ويكشف لك فكر أهلها وأحوال نابغيها وما لهم من آثار محمودة ينبغي أن يحتذي بها كل من أراد أن يكون مثلهم .

- وهو الذي يتعرض للظواهر الأدبية المختلفة في عصر من العصور أو في بيئة من البيئات أو طور من الأطوار أو فيها كلها بالبيان والتحليل من حيث الرفعة والنهضة والضعف والانحطاط .

- وأما تعريفه بمعناه العام ( فهو وصف مسلسل مع الزمن لما دون في الكتب وسجل في الصحف ، ونقش في الأحجار تعبيراً عن عاطفة أو فكرة ، أو تعليماً لعلم أو فن ، أو تخليداً لحادثة أو واقعة فيدخل فيه ذكر من نبغ من العلماء والحكماء والمؤلفين وبيان مشاربهم ومذاهبهم وتقدير مكانتهم في الفن .

الذي تعاطوه ليظهر من كل ذلك تقدم العلوم جميعاً أو تأخرها [1]

أذن لـتاريخ الأدب معنـي خـاص وتعريف خاص ، ومعني عام وتعريف عام .

فهو بمعناه الخاص : التأريخ للشعراء والكتاب تأريخاً خاصاً بالأدب وتطوره وظواهره مع مقدمات تاريخية واجتماعية وثقافية عامة مع بحث شخصيات الأدباء ومذاهبهم الفنية بحثاً تاريخياً نقدياً تحليلياً .

أمـا معـناه العام فهو التأريخ لأعلام الثقافة والفكر الأدبي في الأمة تاريخاً عاماً .

- ومـؤرخ الأدب العربـي إمـا أن ينهج هذا النهج الواسع فيؤرخ لـلأدب بمعـناه العام فيتعرض لكل من أثروا في غيرهم أو تأثروا بغيرهم في شتي المعارف وفي أغلب العصور ، وإما أن ينهج النهج الخـاص فـيقف بتاريخه عند الشعراء والكتاب مفصلاً الحديث في شخـصياتهم الأدبـية وما أثر فيها من مؤثرات اجتماعية واقتصادية ودينية وسياسية .

وقـد درج المؤلفون من أدباء العربية علي التأريخ بالمعني الخاص ومـن الذين برزوا في هذا المجال - ابن خلكان في كتاب " وفيات الأعـيان " والكتبي في كتابه " فوات الوفيات " والسيوطي في " بغية الـوعاة " وياقوت الحموي في " معجم الأدباء " والقفطي في " تاريخ

---

[1] تاريخ الأدب العربي / الزيات صـ ٤

الحكماء " ، وأبو الفرج الأصفهاني في " الأغاني " ، والثعالبي في " يتمـــية الدهر " ، والفتح بن خاقان في " قلائد العقيان " ، والكاتب الأصفهاني في " خريدة القصر " والمقري في " نفح الطيب " .

– بـــيد أن نـــسبة هذه الكتب إلي تاريخ الأدب ظلم لتاريخ الأدب ؛ لأنها في جملتها أخبار مفردة غير مرتبطة لا تظهر ما بين الشعراء أو الكتاب من علاقة في الصناعة والغرض والأسلوب .

– وهي كذلك لا تذكر ما حدث للشعر والنثر من تحول وتقلب ، وما نجـــده مـــن ذلك في كتاب " العمدة " لابن رشيق القيرواني ، وكتاب " المـــثل السائر " لابن الأثير ، " والمقدمة " لابن خلدون والفهرست لابـــن النديم ليس إلا نتفاً يسيرة ونبذاً وجيزة وردت مبعثرة لا صلة بينها ولا رابط .

والأدب لا يكتفي منه بالنتف اليسيرة ولا بالنبذ الوجيزة التي لا رابط بيـــنها ولا بالأحكام أو التراجم المجملة وإنما لا بد فيه من التفصيل والتحليل وربط هذا بذاك .

– ولمـــا كان الأدب كائنا حياً يتأثر بالمؤثرات العامة فإن فريقاً آخر ينبري مؤرخاً لهذا الأدب فيتعرض لأحواله من قوة وضعف ويحيط خبراً بالمؤثرات العامة في حياته من بيئة طبيعية واجتماعية وثقافية إلـــي غير ذلك من المؤثرات التي عملت فيه ، كما يدرس عصوره المخـــتلفة ، ومن يقوم بذلك هو المؤرخ الأدبي الذي يحتاج إلي ثقافة

تمتاز بالسعة والإحاطة والشمول وهذا الفريق هم المستشرقون ومن سـار علـي نهجهم من مؤرخي العرب وكان ذلك في بداية العصر الحديث .

- إذن ظـل هذا العلم بمعناه الواسع مجهولاً إلي القرن قبل الماضي حيث جاء المستشرقون فجمعوا أشتات هذه المسائل ونسقوها ورتبوها بعد أن مهدوا لذلك بمقدمات تاريخية كمداخل لفهم هذه المسائل .

- فهذا " كارل بروكلمان " المستشرق الألماني قد أرخ للأدب بمعناه الـشامل فكتابه " تاريخ الأدب العربي " أشبه بدائرة معارف عامة تستقصي الآثار المطبوعة والمخطوطة في مشارق الأرض ومغاربها للفلاسـفة والعلماء العرب من كل صنف وللشعراء والكتاب من كل نوع .

أنـه أرخ للحياة العقلية والشعورية في الأمة تاريخاً عاماً ، وقد نسج علـي منواله : جرجي زيدان في كتابه " تاريخ آداب اللغة العربية " وفؤاد سزكين في كتابه " تاريخ التراث العربي "

ومن هؤلاء المستشرقين ، المستشرق الإيطالي " كارلو نالينو " الذي جمـع في كتابه " تاريخ الآداب العربية " دراسة شعر المشركين في صـدر الإسـلام والغـزل والأراجيز وشعر الفتن السياسية والشعر القصصي والمراثي .

- ومـــن المؤرخين الذين ساروا علي نهج المستشرقين غير جرجي يدان ، وفؤاد سزكين ، طه حسين ، وحفني ناصف ، والشيخ أحمد لإســـكندري ومحمـــود مـــصطفي ، ومـــصطفي صادق الرافعي ، السباعي بيومي ، والزيات

- **وقـــد دخـــل في دراسة تاريخ الأدب في العصر الحديث دراسات وموضوعات أخري من أهمها :**

١) الترجمة من اللغات الغربية ، والبعثات وأثرها في ازدهار الأدب وآثار الترجمة في الأدب والفنون .

٢) المستـــشرقون وآثارهم واستكشاف أهدافهم من دراساتهم إنصافاً للعـــرب وللفكـــر الإســـلامي والحـــضارة العربية أو تجنياً عليهم ، وتصدي العلماء العرب لهؤلاء المستشرقين .

٣) المقالات المختلفة والصحافة ودورها في ازدهار هذا الفن .

٤) القـــصة والأقـــصوصة والرواية والمسرحية ، ودراسة المذاهب الأوربـــية نـــشأتها وآثارهـــا كالكلاســـيكية والرومانتيكية والواقعية والرمزية .... الخ .

## العوامل المؤثرة في الأدب :

جـــاء الأدب الجاهلـــي ممثلاً ومصوراً للحياة الجاهلية أصدق تمثيل وأوضح تصوير ومعبراً عن كل جوانب الحياة منها سياسية كانت أو اجتماعـــية أو دينـــية أو عقلية ، وما ذلك إلا لأنه نبع منها فصبغته بصبغتها وطبعته بطابعها .

مـــن أجـــل ذلـــك كان الوقوف علي أهم العوامل المؤثرة في الأدب الجاهلـــي أمـــراً ضرورياً ، لأن دراستها وفهمها يساعد كثيراً علي إدراك الدوافـــع النفـــسية المتبايـــنة ، ويكـــشف الـــدلالات المختلفة والخصائص العامة .

إذن دراسة هذه العوامل أساس هام في الكشف عما في هذا الأدب .

### ومن أهم هذه العوامل :

أ) البيئة : البيئة هي التي يلازمها الإنسان في حلة وترحاله ، ويحيا مع صورها وما حوت من ألوان مختلفة فتنعكس علي طبيعة الإنسان بمـــا تحـــويه من حرارة وبرودة وخصب وجدب ، ورقة وغلظة ، وســـكينة وجلـــبة ، فطبيعة تلك البلاد " أعني بلاد العرب "معظمها صـــحراء وأرض شاسعة من الفضاء يندر فيها الكلأ ، لذا يكثر فيها الارتحـــال بـــين الحين والحين انتجاعاً للرزق وبحثا وراء الكلأ في أرض غيـــرها ، ولهـــذا ظهرت الغلظة والوعورة في طباع أكثرهم بسبب ما كان يقابل من مغامرات وغارات فقد كان يمشي طويلاً في

طــرق طويلة لا يصادف مؤنسا ، فيتصور الجن والغول ، وكل هذا يــنعكس علــي فكــرهم وآدابهم ، وهذه الحياة التي يحياها الجاهلي يستيقظ في الصباح فتقع عينه علي الإبل والآكام والصحراء والسماء والبــرق والرعد والمطر والليل والنجوم والأماكن التي ارتحل عنها أهلهــا بعد أن أقاموا بها زمناً ، وربما عششت بعض الذكريات من هــذه الــديار فــي فكر الشاعر ووجدانه فتركت في نفسه أثراً قد لا يمحي .

- وعــدة العربــي في الصحراء الجمل والفرس وعليهما يعتمد في حــربه وسلمه كل هذا له أثره في توجيه الشعر والأدب عموماً نحو وجهة معينة .

- فها هو ذا امرؤ القيس يصف فرسه قائلاً :

**مكر مفر مقبل مدبــر معــــا كجلود وصخر حطه السيل من عل**

**كميت يزل اللبد عن حال متنــه كمــا زلــت الصفــواء بالمتنــزل**

**علي الذبل جياش كأن اهتزامه إذا جــاش فيــه حمية غلي مرجل**

- وهــذا عنترة وزهير وغيرهم يصفون النياق والجياد وما ذلك إلا أثراً من آثار البيئة التي عاشوا بين أحضانها وتعاملوا معها .

- وهــؤلاء بــدورهم يخــتلفون عــن أولئك الذي يعيشون في بيئة متحــضرة طيبة الجو رغدة رقيقة ، فإنك لتجد هؤلاء في حالة أكثر هــدوءاً واتــزاناً ورقــة ونعومة ، وهذا بلا ريب يساعد علي توفر

الاعـــتدال ، وكـــل هذه الآثار تنعكس علي الأدب فتتوفر فيه عذوبة الألفاظ ورقة الخيال وسهولة الأسلوب وبعده عن الخشونة والوعورة والمعاني الوحشية والخيال المحدود .

يقـــول صاحب الوساطة : ( وكان القوم يختلفون وتتباين أحوالهم ، فيرق أحدهم ويصلب شعر الآخر ، ويسهل لفظ آخر ويتوعر منطق غيره وإنما ذلك بحسب اختلاف الطبائع وتركيب الخلقة ، فإن سلامة اللفـــظ تتـــبع سلامة الطبع ، ودماثة الكلام بقدر دماثة الخلق ، وأنت تجـــد ذلـــك ظاهـــراً في أهل عصرك وأبناء زمانك وتري الجافي والجلـــف منهم كز الألفاظ معقد الكلام وعر الخطاب حتي أنك ربما وجـــدت ألفاظـــه فـــي صوته ونغمته وفي جرسه ولهجته ومن شأن الـــبداوة أن تحـــدث بعض ذلك ، ولأجله قال النبي " صلي الله عليه وسلم " : ( من بدا جفا ) ولذلك تجد شعر عدي بن زيد وهو جاهلي أســـلم من شعر الفرزدق ، ورجز رؤبة وهما أهلان لملازمة عدي الحاضـــرة وإيطانه الريف وبعده عن جلافة البدو وجفاء الأعراب ، وتـــري رقـــة الـــشعر أكثر ما تأثرك من قبل العاشق المتيم والغزل المـــتهالك فإن اتفقت لك الدماثة والصبابة وانضاف الطبع إلي الغزل فقـــد جمعـــت لـــك الرقة من أطرافها ، فلما ضرب الإسلام بجيرانه واتـــسعت ممالـــك العـــرب وكثـــرت الحواضر ..... ونشأ التأدب والتظرف اختار الناس من الكلام ألينه وأسهله ) [1]

---

[1] الوساطة / القاضي الجرجاني صـــ ٢٣. ٢٤

(ب) الحياة الاجتماعية والسياسية :

كان سكان الجزيرة العربية يعيشون عيشة قبائل ، فالقبيلة هي الوحدة التي يبني عليها نظام حياتهم . والنظام القبلي ينتظم في سلكه الأفراد في البادية ، فهذا النظام أشبه ما يكون بالدولة المستقلة علي صغرها وتحكم نفسها بواسطة رئيسها أو سيدها ، وله الكلمة النافذة والقضاء الفصل ، ينزلون علي رأيه ويخضعون لأمره ، ويستجيبون لندائه ، ولا بد له أن يجمع من الصفات ما يؤهله لهذه المنزلة كالشجاعة والكرم واللسن ، وسداد الرأي وبعد النظر ويحسن أن يجمع إلي ذلك حسن المنظر وضخامة الهامة ، ومتانة البنيان وهذا يدل علي وعي العرب الشديد فهذا يقوم مقام الانتخاب الناجم عن النظرة السليمة ، والرئاسة بهذه الطريقة بعيدة عن الوراثة وفي ذلك يقول الشاعر :

وإني وإن كنت ابن سيد عامر وفارسها المشهود في كل موكب
فما سودتني عامر عن وراثة أبي الله أن سمحوا بأم ولا أب
ولكنني أحمي حماها واتقي أذاها وأرمي من رماها بمنكب

أما القبيلة : فهي مجموعة من الأفراد ينتسبون إلي أب واحد ، وينتمون لجد واحد هو جدهم الأكبر ، وقل أن ينسب إلي القبلية من لم يساهمها في نسبها إلا عن طريق الحلف أو الولاء .

والقبيلة في العصر الجاهلي تتألف من ثلاث طبقات .

١) الأحـــرار " الصرحاء " : وهم أبناء القبيلة الأصليون الذين يربط بيـــنهم الـــدم والنـــسب وهم عمادها وقوامها يتمتعون بكل الميزات وعليهم حمايتها والدفاع عنها .

٢) العبـــيد : وهـــم أسري الحرب الذين عجز أهلهم عن فدائهم ، أو الرقيق المجلوب من البلاد الأجنبية المجاورة وخاصة الحبشة .

٣) الموالـــي : وهـــم العبيد الذين اعتقوا ولكن تظل هناك صلة بين المعتق والمعتق تسمي الولاء .

– وتـــسود أفـــراد القبـــيلة جميعاً فكرة العصبية ، فكل فرد يتعصب لقبيلـــته ويعني بحفظ نسبه ويفتخر به ويحنو علي من يشاركه فيه ، ويسير علي منهج قبيلته أصابت أم أخطأت .

والقبـــيلة تحميه من العدوان ، وتطالب بدمه إن جني عليه ، ومرجع الأفـــراد في إقامة العدل بينهم علي حسب عرفهم وتقاليدهم هو سيد القبلية .

– وعلاقـــة القبـــيلة بالقبيلة الأخري ، علاقة عداء – غالباً – تغير علـــيها وتغنم من مالها ورجالها والأخري تتربص بها الدوائر لتنتقم منها ، والقليل منها علاقات حب وسلام وحسن جوار .

– أما عن أخلاقهم وصفاتهم فحدث ولا حرج فقد كانوا بدواً ، ولأهل الـــبدو صفات خاصة يمتدحون بها ويكثرون في شعرهم من ذكرها

والتغني بها ولعل خير ما يمثل هذه الصفات والخصال خصلة الكرم التي بعثتها فيهم حياة الصحراء القاسية وما فيها من إجداب وإمحال فقد كان الغني يطعم الفقير وكثيراً ما كان الغني يذبح إبله في سنين القحط يطعمها عشيرته ومن سننهم أنهم كانوا يوقدون النار ليلاً علي أعالي الجبال ليهتدي إليهم التائهون والضالون في الفيافي

– وكانوا لا يقدرون شيئاً كما يقدرون الوفاء فإذا وعد أحدهم وعداً أوفي به وأوفت معه قبيلته بما وعد ، ومن ثم أشادوا بحماية الجار الذي استجار بهم ، وإغاثة الملهوف وحماية الضعيف ، والعفو عند المقدرة ، ، كما كانوا يمتدحون بالأنفة والعزة والكرامة وقلت الشكوي من الهم ، وبعد الهمة ، وسعة الأمل ، والمروءة وهو لفظ يجمع قانون الشرف عماده الشجاعة والكرم والوفاء .

– علي أن هناك آفات كانت تشيع في هذا المجتمع الجاهلي ، لعل أهمها الخمر واستباحة النساء والقمار وتعرض لذلك الكثير من الشعراء في أشعارهم وخاصة الخمر .

يقول طرفة بن العبد :

**ومازال تشرابي الخمور ولذتي وبيعي وإنفاقي طريفي ومتلدي**

**إلي أن تحامتني العشيرة كلها وأفردت إفراد البعير المعبد**

وأكبر دليل علي شيوع هذه الآفات بينهم الآيات الكثيرة التي هاجمتها في القرآن الكريم ، وما وضعه الإسلام لها من عقوبات صارمة حتي يكف العرب عنها .

جـ) الحياة الدينية

كان للعرب في الجاهلية دين ضعيف ، لا يخلصون له ولا يصل إلي أعماق نفوسهم ، وانتشرت الوثنية في أكثر قبائل العرب فقد كانوا يعبدون الأوثان والأصنام ويشركون مع الله آلهة أخري ، كما كان بعضهم يعبد النجوم والكواكب وقلما تجد في أشعارهم شرحاً لعاطفة دينية ، وقل أن تري فيه ذكر الله وتمجيده وقل – أيضا – أن تري فيها وصفاً لما كانوا يعبدون .

ويشير القرآن الكريم إلي بعض آلهتهم ورموزها من أصنامهم وأوثانهم فيقول عز وجل " أفرأيتم اللات والعزي ومناة الثالثة الأخري " ويقول سبحانه وتعالي" ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً " . ووراء هذه الأصنام التي ذكرها القرآن الكريم أصنام كثيرة كانت تتعبد لها قريش والقبائل العربية في الجاهلية ويقال إنه كان في الكعبة عند فتح الرسول صلي الله عليه وسلم لمكة ثلاثمائة وستون صنماً [1] وكان أعظمها عند القرشيين هبل .

---

[1] ذكر ذلك ابن الأثير في فتح مكة جـ٢

كما انتشرت اليهودية والنصرانية في بعض بقاع الجزيرة العربية ، فقد كان فيها مستعمرات يهودية من أشهرها ( يثرب ) وهي التي سميت بعد ( بالمدينة ) وكانت اليهودية فيها آمنة مطمئنة ، كذلك انتشرت اليهودية في اليمن في أوائل القرن السادس للميلاد ، ولكنها كانت في نزاع مستمر مع النصرانية ومن أشهر شعراء اليهودية السموأل بن عادياء .

- وانتشرت النصرانية في مناذرة الحيرة وفي غساسنة الشام وسائر قبائله وزاحمت اليهودية في اليمن ، وكان أشهر مراكز النصرانية في اليمن مدينة " نجران " وكان القسيسون والرهبان يردون أسواق العرب يعظون ويبشرون ويذكرون البعث والحساب والجنة والنار ، واشتهر من شعرائهم وخطبائهم عدي بن زيد ، وقس بن ساعدة الإيادي .

ولكن اليهودية والنصرانية كانتا قليلتين إذا قيستا بالدين السائد في الجزيرة وهو الوثنية .

- كما ظهرت نحل أخري غير الديانات السابقة ومنها : الصابئة ، والمجوسية والحنيفية ، وتلك الأخيرة رأي فيها بعض عقلاء العرب من ذوي النظر الثاقب والفكر المستنير أنها تأخذ بأيديهم من هذه الحيرة وكثرة الأديان والمذاهب والملل وتوصلهم إلي الإقرار بوجود

الله الـــواحد مـــصرف الكـــون ولهذا لم يركنوا إلي شئ من ديانات العرب من هؤلاء ورقة بن نوفل .

- وقـــد تـــركت هذه الأديان بصماتها في أشعار الجاهلية ففيها تري فكرة البعث والحساب وعلم الله لما في الغيب والنفوس فهذا عبيد بن الأبرص يقول :

**من يسأل الناس يحرموه وسائـــل الله لا يخيـــب**

وهذا زهير بن أبي سلمي يقول :

**فلا تكتمن الله ما في نفوسكـــم ليخفي ومهما يكتم الله يعلم**

**يؤخر فيوضع في كتاب ويدخر ليوم الحساب ويعجل فينقـــم**

وهذا قول امرئ القيس ( إن صح أنه من شعره )

**تلك السحاب إذا الرحمن أرسلها**

**روي بها من قحول الأرض أيباسا**

<u>د) الحياة العقلية " المعارف "</u>

مـــن البدهـــي أن الحـــياة تساعد المرء علي معرفة وتحصيل بعض المعارف ، وهذه المعارف لم تأت جملة ولم يصلوا لأيها دفعة واحدة بـــل هـــي ضـــروب جميعها من المعرفة الأولية تقوم علي التجربة الناقـــصة ولا تؤسس علي قاعدة ولا علي نظرية . فهم في غالبيتهم بدو .

كانـــت المـــدن علي التخوم واليمن متحضرة بعض التحضر فالآثار التـــي عثـــر عليها في اليمن والحيرة ، وما نقل عن أهلها يدل دلالة صـــادقة علـــي أنهم كانوا علي حظ من الفن والعلم غير قليل فأهل الحيـــرة تـــسرب إليهم شئ من علوم الفرس وآدابهم وعلوم اليونان وآدابهم ، والغساسنة في الشام تسرب إليهم شئ من حضارة الرومان واليونان وآدابهم ، واليمن أمة عريقة في المدنية كانت تتصل بالفرس وتتصل بالحبشة وتتصل بالرومان ولها معهم جميعاً صلات تجارية أمـــا مـــا عدا هؤلاء من سكان الجزيرة فكان حظهم من العلم والفن قليلاً .

وعلي الإجمال فقط كانت للعرب معرفة بالأنساب والأيام وما ينطوي علـــيها مـــن المناقب والمثالب ومعرفة أخبار الأمم ومعرفة النجوم والفلك ومعرفة شئ من الطب كالكي بالنار وبعض العقارات النباتية ومـــا يتـــصل بذلك من معارفهم البيطرية وخاصة فيما يتصل بالإبل والخيل

وكانـــت العـــرب علي علم خاص بالفراسة ( وهي الاستدلال بهيئة الإنـــسان وشكله وأقواله علي أخلاقه ومناقبه ) والقيافة وهي ( تتبع الأثـــر في الأرض والرمل ليتعقبوا من يضل منهم في الصحراء أو ليتعقبوا الأعداء الذين يغيرون عليهم .

وإلي جانب ذلك مما تقدم أضاف العربي ما عرفه من خلال رحلاته من قصص وأخبار سمعها بنفسه أو شاهدها أو حكيت له ومنها أخبار الملوك ، والقصص والأساطير ومما وعته ذاكرتهم ونقله الآباء إلي الأبناء ووعته أذهان الرواة من الحكمة .

وتمتلئ كتب الأمثال والأدب بما دار علي لسان لقمان وغيره من حكماء الجاهلين من حكم مثل قول أكثم ( مقتل الرجل بين فكيه ) وفي الشعر الجاهلي كثير من هذه الحكم مثل قول طرفة بن العبد في معلقته :

**أري العيش كنزاً ناقصاً كل ليلة  وما تنقص الأيام والدهر ينفد**

وممن اشتهر بهذه الحكم الأفوه الأودى ولبيد وعبيد بين الأبرص وفي خاتمة معلقة زهير طائفة كبيرة منها مثل قوله :-

**وأعلم علم اليوم والأمس قبله  ولكنني عن علم ما في غد عم**

**ومن لا يصانع في أمور كثيرة  يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم**

**ومن لا يزد عن حوضه بسلاحه  يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم**

**ومن هاب أسباب المنية يلقها  ولو رام أسباب السماء بسلم**

**ومهما تكن عند امرئ من خليقة  وإن خالها تخفي علي الناس تعلم**

وقد وقف شعراؤهم كثيراً عند فكرة الموت والحياة والدهر وما يرمي به الناس ، وكانوا يرون أنه لا مفر من الموت ولا حيلة منه ، وكثيراً ما يذكرون من سبقهم إليه متخذين من ذلك العظة

يقول قس بين ساعدة :

في الذاهبين الأولين من الشعوب لنا بصائر
لما رأيت مواردا للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها تسعى الأصاغر والأكابر
لا يرجعن قومي إلي ولا من الباقين غابر
أيقنت أني لا محالة حيث صار القوم صائر

وعلي هذه الشاكلة كانت لهم ضروب من التفكير في حقائق الحياة والموت ، كما كان لهم حكم كثيرة مقتبسة من حقائق مجتمعهم ومعاشهم وليس في ذلك كله فلسفة ولكن فيه من البساطة والفطرة وما يدل علي حنكتهم وتجربتهم الحسية الواقعية .[1]

---

[1] العصر الجاهلي / شوقي ضيف صـ٨٨

# الأدب الإنشائي والوصفي

قسم النقاد الأدب إلي أقسام ، فالأديب عندما يفكر في أمر من الأمور تفكيراً ينم عن شعوره العميق وأحساسه المرهف وتنساب الخواطر والعواطف التي تتنوع في نفس الشاعر أو الأديب وتأخذ أبعاداً متفاوتة وتتداخل الأفكار التي تغذي هذه الشاعرية ، فتتضح الصورة أمام الشاعر أو الأديب عندئذ قد تأتي مرحلة الإفراز اللغوي مباشرة لتخلص الشاعر من هذه الشحنة القوية فيعبر الأديب عن شعوره الداخلي أو خواطره النفسية وانفعالاته نحو ما يفكر فيه من أمور الحياة بالشعر أو النثر فهذا هوالأدب الإنشائي لان الأديب حينئذ ينشئه إنشاء ويكون قد صور ما عبر عنه تصويراً مباشراً من خلال وجدانه فتخرج تجربته ممتزجة بعاطفته ومشاعره معبرة عن شخصيته فهو يفضي بذات نفسه ويستطيع بما أوتي من قدرة أن ينقل هذا التأثر إلي غيره ، وعلي قدر تصويره وقدراته الفنية يكون هذا التأثر .

## ✍ فالأدب الإنشائي

هو الأدب الذي يعبر فيه الأديب عن خواطره وأحاسيسه نحو الطبيعة سواء كانت هذه الأحاسيس وتلك الخواطر مصدرها فيض من نبع داخلي في نفسه أم تتمثل فيما حوله من هذه الطبيعة ، فموضوعه إذن الطبيعة الداخلية والخارجية ( في نفس الأديب وخارجه )

وموضـــوعات الأدب الإنشائي : الشعر بما يجمع من فنون كالمدح والوصـــف والهجـــاء ، والنثـــر من قصة ومقالة ومسرحية وخطابة وكتابة بأنواعها .

**والأدب الوصفي "النقد الأدبي"**

هـــو الذي يتلقي الأدب الإنشائي ويضعه علي شريحة البحث والتأمل ويحاول استخراج أسباب ومواطن الجودة والحسن في النص الأدبي أو مواطن القبح والضعف فيه ، وهو ما اصطلح علي تسميته ( بالنقد الأدبي ) .

- وموضوع الأدب الوصفي كما هو واضح هو الأدب الإنشائي .

**خلاصة القول أن الأدب نوعان :**

١) أدب إنشائي وهو التعبير الإنساني الشعري أو النثري عما يجول بالخواطـــر أو يخـــتلج ويخـــالط الجوانح نحو الطبيعة الداخلية التي يحسها الإنسان من الميول والأهواء أو الطبيعة الخارجية التي يراها في السماء والنجوم والبحار والجبال ..... الخ

**- وينقسم الأدب الإنشائي إلي قسمين**

أ) أدب ذاتـــي وهو الذي يعبر فيه الأديب عن ذات نفسه وخواطره ومشاعره وآرائه وتأملاته وإحساساته ومن ذلك الشعر الغنائي .

ب) أدب موضوعي : وهو الذي يستعير فيه الأديب ألسنة الآخرين يتحدث عنهم بها ويعبر عما يجول بخواطرهم ومن ذلك الأدب التمثيلي والقصصي .

٢) وأدب وصفي: وهو ما يتناول الأدب الإنشائي بالوصف والتحليل والحكم عليه بالرضا والقبول أو بالسخط والرفض ، وهذا الحكم بالرضا أو بالسخط لا يصور طبيعة لا داخلية ولا خارجية ولا يصور تأثر الأديب بها ، بل أنه يتعرض لوصف ما قيل في تصوير الطبيعة ، وهو ما يسمي " نقداً "

- ومن الملحوظ أن الأدب الوصفي وجد بعد الأدب الإنشائي ، لأنه مبني عليه وقائم به ، وهذا النوع من الأدب " الوصفي " يرتقي بارتقاء العقل الإنساني ، واستكشاف واستبطان الأمور والتعرف علي داخائلها .

- وينقسم الأدب الإنشائي إلي قسمين : شعر ونثر

فالشعر : هو الكلام الموزون المقفي المعبر عن الأخيلة البديعة والصور المؤثرة البليغة .

والنثر : هو الكلام الخالي من الوزن والقافية المعبر غالباً عن الحقائق ، وصدق التعبير .

وهو نوعان : مسجع : إن التزم في كل فقرتين أو أكثر قافية [١]

ومرسل : أن كان غير ذلك

---

[١] تاريخ الأدب العربي / الزيات صـ ١٨

# الفصل الرابع

## نظرية سبق الشعر للنثر عند بعض المحدثين وأدلتها، ورأينا فيها

❁ تقديم بين الشعر والنثر :

فيما سبق تعرضنا لتعريف الشعر والنثر باقتضاب ، وسوف نفسح المجال هنا لشيئ من التفصيل ثم نعرج علي نظرية أسبقية الشعر للنثر ومن قال بها وأدلته ، والرأي في ذلك .

- كلمة الأدب تشمل فنيه : الشعر والنثر ، وإذا كانت الفنون الجملية تصور الطبيعة وجمالها بوسائل مختلفة ، فإن الشعر هو تصوير للتجارب الشعرية بالألفاظ والمعاني .

***وقد عرف العروضيون الشعر بأنه*** : الكلام الموزون المقفي ، وهذا لا يستقيم تعريفاً للشعر لأن هذا التعريف يدخل في دائرته النظم البارد بلا عاطفة ولا خيال وكذلك العلوم المنظومة كألفية ابن مالك وغيرها مما هو بعيد عن دائرة الشعر الذي هو في حقيقته : التعبير الجميل عن الحياة والنفس .

- ***أو هو كما عرفه البعض*** : ما أشعرك وجعلك تحس بجوانب النفس البشرية .

- أو هو كما عرفه البعض التعبير الجميل الذي يصور الطبيعة والحياة معتمداً علي العاطفة والخيال أكثر من اعتماده علي الفعل والفكر .

- وقد جاء في الأدب الجاهلي لطه لحسين [1] أن الشعر : هو الكلام الذي يعتمد فيه صاحبه علي الخيال ويقصد فيه إلي الجمال الفني

---

[1] الأدب الجاهلي / طه حسين صـ ٣٠٩ الطبعة العاشرة

الـــذي يخلب الألباب ويستهوي القلوب ، أو هو الكلام المنظوم الذي يعتمد فيه صاحبه علي الخيال ويقصد فيه إلي الجمال الفني .

- أمـــا النثـــر الفني الذي يدخل في دائرة الأدب فهو الكلام الجميل المتحـــرر مـــن الـــوزن والقافية المعتمد على الفكر والعقل أكثر من اعـــتماده علـــى العاطفة والخيال حتى إن هذين العنصرين " العاطفة والخـــيال " إذا غلبا على النثر فإن بعض الأدباء المحدثين يروق لهم أن يسموا هذا النثر بالشعر المنثور .

## ❁ أي الفنين أسبق الوجود ؟ الشعر أم النثر ؟

يـــرى بعض النقاد المحدثين من أمثال الأساتذة : أحمد أمين ، وطه حسين ، وعبد الوهاب عزام ، وحامد مصطفى ، أن الشعر أسبق إلى الوجود من النثر ،وحجتهم في ذلك

١) أن الشعر أقدم الآثار الأدبية عند جميع الأمم والشعوب.

٢) وفرة الشعر الجاهلي في الأدب العربي إذا قيس بالنثر الجاهلي .

٣) أن الـــشعر وحـــي الـــنفس ولغة القلب وترجمان العاطفة ومرآة الوجدان ، وهذه الأشياء وجدت مع عهود الإنسانية الأولى ، أما النثر فلغة العقل ، والفكر الناضج والتطور الحضاري ، وهذه الأمور تأتي تالية لعهود النشأة الأولى .

٤) أن الشعر تعبير عن حاجات ضرورية وغريزية فيه كحاجته إلى إظهار الفرح أو الحزن في المناسبات المختلفة وحاجته إلى الترويح أو التخفـــيف عـــن النفس بعد تحملها المتاعب طوال اليوم ، فالحياة

وقتـــئذ كانت شاقة ، ومن شأن الشعر والغناء تحقيق ذلك كما يقول بعضهم[١]

- أما النثر فقد تأخر عن ذلك مراحل لأنه يعبر عن حاجات الإنسان المتحـــضر الذي حاز جانباً من الثقافة وقدراً من التعليم بعد الاهتداء إلي الكتابة والتسجيل لشئون الحياة المهمة .

- ويري بعض العلماء والأدباء أن النثر أسبق إلي الوجود من الشعر ومـــن أصحاب هذا الرأي " أبوبكر الباقلاني " صاحب كتاب أعجاز القـــرآن ، وابـــن رشيق القيرواني صاحب كتاب العمدة في محاسن الـــشعر وآدابـــه ونقده ، وحجتهم في ذلك ، أن الشعر مقيد بأوزان وقواف والنثر مطلق والعقل يقضي بأسبقية المطلق علي المقيد .

***ويؤيد هذا الرأي من المحدثين***

الـــسباعي بيومـــي ، ومحمـــد هاشم عطية ، وأحمد الإسكندراني ، ومصطفي عناني .

- وإذا كـــان أصـــحاب الرأي الأول يحتجون لقولهم بأن الشعر أقدم الآثار عند جميع الأمم والشعوب وكان معروفاً ذائع الصيت ، فإنني أمـــيل إلي أصحاب الرأي الثاني والذين يقولون بأسبقية النثر للشعر وأخص منهم رأي المرحوم الأستاذ محمد هاشم عطية والذي جاء فيه أن ظهـــور الشعر في الأمم القديمة لا ينبغي أن يحمل علي شئ

---

[١] دراسات في عصري الرياذة / محمد العربي صـــ١٠٤ .

أكثـــر من أنه هو الذي وعته الصدور وتوارثته الأعقاب وظفر من عناية الحفاظ وتناقل الرواة بما لا يظفر بشئ من مثله النثر ، فضاع علـــي كثـــرته ولم يبق منه إلا القليل يوشك أن يكون شيئاً لا يذكر بجانب ما حفظ من الشعر [١]

- كما توافرت للشعر عوامل ساعدته علي إحلاله محل النثر ووفرت لـــه الذيـــوع ، وساعدته علي البقاء ، فالشعر الجاهلي في كثير من القـــبائل لا ينـــبع إلا مجـــرداً عن النفع وقد كانت القبيلة تنكر علي الشاعر أن يقصر شعره علي ذات نفسه ومشاعره الشخصية .

- كمـــا ساعد علي ظهور الشعر وانتشاره أنه كان طريقاً للتكسب ، فالحـــياة الجاهلـــية فقيرة غالباً ، وغنية قليلاً ..... هذا إلي جانب الـــصراع والحـــروب التـــي تدور في معظمها حول أسباب العيش الضيقة في بيئة يغلب عليها الجدب والقحط ، وقد وجد الشاعر سبيلاً إلي الحياة في ظل قبيلته أولاً ـــ إذ كان لسانه سيفاً معنوياً إلي جانب الـــسيف المادي في يد المحارب المناضل فإذا ضاقت سبل الحياة أو الحـــصول علي مطلبه من الشرف وغيره تلمس سبيلاً خارج دائرة القبيلة [٢] .

---

[١] الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي صـــ٦١ ط٣ البابي الحلبي .

[٢] انظر ظاهرة التكسب وأثرها في الشعر العربي ونقده / درويش الجندي صـــ١٩

- كما ساعدت كثرة العصبيات في الجاهلية علي حفظ الشعر بسرعة وسهولة لما في طبع الإنسان من إيثار الإيقاع في الأصوات ، وترديد نغمة لذت بها أذنه " كما أن العرب قوم أميون لم يرجعوا في تدوين حكمتهم وتخليد مآثرهم إلي رقم في رف ، أو نقر في حجر فأكسبهم ذلك التأني في الكلام وجودة الحفظ ومعاناة الرواية ، ولا تتمثل هذه الأمور في أمثل من الشعر .

- وإذا كان الشعر طريقاً للتعبير عن المشاعر ، فالنثر أيضا طريق لإظهارها ، والتعبير عنها ، وإلا لو سلمنا أن الشعر هو الطريق الأوحد للتعبير عن المشاعر عند الشعراء ، فكيف يعبر غير الشعراء من الكثرة الهائلة من الناس ، وكيف تعبر عن ذلك القبائل التي لم توهب شعراء .

- وإذا كان النثر الفني يعبر عن حاجة الإنسان المتحضر كما يقال ، فهل يعني ذلك أنه لا يوجد في عصور البداوة من أهل الفصاحة من يعبر عن حاجته بأسلوب نثري . إذن ما بالنا نقرأ الكثير من الخطب والحكم والأمثال والوصايا ، وكلها من نتاج الجاهلية ، ولعلك تقول إنها قلة ، فأقول لك لعل الكثرة منها قد ضاعت كما ضاع الكثير من الشعر الجاهلي .

❁ *الخلاصة* : أنه لعلك أيها القارئ قد وجدت فيما ذكر آنفاً ما يبرر ما أريد قوله وهو وجود النثر قبل الشعر، وظهور الشعر قبل النثر .

# الفصل الخامس

## تحديد العصر - معنى الكلمة

## الأدب الجاهلي ، أقسامه

## ❁ العصر الجاهلي

**تحديد العصر :**

قد يتبادر إلي الأذهان أن العصر الجاهلي يشمل كل ما سبق الإسلام من حقب وأزمنة ، فهو يدل علي الأطوار التاريخية للجزيرة العربية في عصورها القديمة قبل الميلاد وبعده ، وهذا فهم خاطئ ، لأن الباحثين في الأدب الجاهلي لا يتسعون في الزمن به هذا الاتساع من أجل هذا كله نقف بالعصر الجاهلي عند هذه الفترة المحدودة أي عند مائة وخمسين عاماً قبل الإسلام ، أو علي أقصي تقدير قرنين أي مئتي عام . وما قبل ذلك يمكن تسميته بالجاهلية الأولي .

والباحثون في الأدب الجاهلي يقصرون هذا العصر علي تلك الفترة ويكتفون بها ، لأنها عندهم هي الحقبة التي تكاملت للغة العربية منذ أوائلها خصائصها ، والتي جاءنا عنها الشعر الجاهلي .

وقد لاحظ الجاحظ ذلك بوضوح فقال : ( أما الشعر العربي فحديث الميلاد صغير السن أول من نهج سبيله وسهل الطريق إليه امرؤ القيس بن حجر ، ومهلهل بن ربيعة ، فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له – إلي أن جاء الله بالإسلام – خمسين ومائة عام ، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام ) [1] وما قبل هذا التاريخ في الشعر العربي مجهول يكتنفه الغموض .

---

[1] الحيوان جـ١ صـ ٧٤ طبعة الحلبي .

**كلمة جاهلية :**

ينبغي أن نعرف أن كلمة " جاهلية " التي أطلقت على هذا العصر ليست مشتقه من الجهل الذي هو ضد العلم ونقيضه [١] وإنما هي مشتقة من الجهل بمعنى السفه والغضب والنزق ، فهي تقابل كلمة الإسلام التي تدل على الخضوع والطاعة والانقياد لله عز وجل، وما يطوي فيها من سلوك خلقي كريم ، ودارت الكلمة في الذكر الحكيم والحديث النبوي الشريف والشعر الجاهلي بهذا المعنى من الحمية والطيش والغضب .

قال تعالى : ﴿...أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [٢]

وقال أيضًا : ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [٣]

وقال أيضا: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾﴾ [٤]

- وفي الحديث النبوي أن- رسول الله صلى الله عليه وسلم - قال لإبي ذر وقد عير رجلاً بأمه " إنك امرؤ فيك جاهلية .

وفي الشعر الجاهل في جاء قول عمرو بن كلثوم التغلبي :

**إلا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا**

---

[١] انظر مادة جاهلية في دائر المعارف الإسلامية .

[٢] البقرة من الآية ٦٧ .

[٣] الأعراف الآية ١٩٩ .

[٤] الفرقان الآية ٦٣ .

- وواضـــح في هذا النصوص جميعاً أن الكلمة استخدمت من قديم للدلالـــة علي السفه والطيش والحمق ، وقد أخذت تطلق علي العصر القـــريب من الإسلام أو بعبارة أدق علي العصر السابق له مباشرة ، وكـــل مـــا كـــان فيه من وثنية وأخلاق قوامها الحمية والأخذ بالثأر واقتراف ما حرمه الدين الحنيف من موبقات [١] .

- ودائماً وأبداً نعني بدراسة الأدب الجاهلي خاصة الشعر ، لأنه لغة الحياة البدوية وصورتها ، والصوت المعبر عن آمال الإنسان وآلامه في كل وقت وعلي كافة المستويات .

فقـــد كـــان لـــه دور عظيم في تسجيل مآثر العرب وحياتهم ورصد عـــاداتهم وتقالـــيدهم وعقائدهم قبل ظهور الإسلام ، فنحن لم نعش عـــصر الجاهليـــين ولم نرهم ، وإنما تعرفنا علي عقائدهم وصفاتهم وعـــاداتهم وصـــورة كل ما يدور بينهم مما أثر عنهم من قصائد أو مقطوعات شعرية .

ولـــذلك صـــدق من قال : ( الشعر ديوان العرب ) أي إذا أردت أن تتعرف علي العربي في بيئته وبيته وحياته الخاصة والعامة وصفاته ومكارمـــه وأخلاقه سواء الحسنة أو المذمومة فاقرأ في شعر العرب تجد صدي ذلك واضحا جلياً فيما تركوه من مقولات شعرية أو نثرية ما بين مثل وخطبة وحكمة ..... الخ

---

[١] العصر الجاهلي / شوقي ضيف صـــ ٣٩

وأمـــام هـــذه المنزلة العالية للشعر والشعراء لم يملك التاريخ إلا أن يـــسجل من صنوف هذا الفن وألوانه ما ليس له نظير في حياة غير العرب من الأمم .

وحسبنا في هذا أن نشير إلي بعض ما أورده صاحب ( العقد الفريد ) فـــي هـــذا الـــشأن لنعرف إلي أي مدي كان قدر هذا الفن في حياة العرب فقد قال : ( ومن الدليل علي عظم الشعر عند العرب وجليل خطـــبه فـــي قلـــوبهم أنه لما بعث النبي – صلي الله عليه وسلم – بالقـــرآن المعجز نظمه المحكم تأليفه ، وأعجب قريش ما سمعوا منه قالـــوا : ما هذه إلا سحر وقالوا في النبي ( صلي الله عليه وسلم ) : ( شاعر نتربص به ريب المنون ) .

*** الأدب الجاهلي فنان :**

١) الشعر : وهو كما مر الكلام الموزون المعبر عن الأخيلة البديعة والصور البليغة ، وهو أقدم الآثار الأدبية لعلاقته بالشعور ، وصلته بالطبع ، وعدم احتياجه إلي تعمق في العلم ، أو تقدم في المدنية .

٢) النثـــر : وهـــو أيـــضا كما مر الكلام الخالي من الوزن والقافية مسجعاً كان أو غير مسجع .

والنثر أنواع منه المثل ، والخطبة ، والوصية ، الحكمة ..... الخ

فالمـــثل : جملـــة مقتطعة من القول أو مرسلة بذاتها تنقل عن عمن وردت فـــيه إلـــي مشابهه بدون تغيير ، وهذا النوع خاص بالعرب لانتزاعه من حياتهم الاجتماعية وحوادثهم الفردية .

والحكمـــة : قـــول رائع موافق للحق ، سالم من الحشو ، وهي ثمرة الحنكة ونتيجة الخبرة وخلاصة التجربة .

والخطبة والوصية : كلتاهما يراد بها الترغيب فيما ينفع وعما يضر إلا أن الخطـــبة تكـــون علي ملأ من الناس في المجامع والمواسم ، والوصية تكون لقوم معينين في زمن معين .